

٥ - هاتان تفاحتان حمراوان:

دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول

د. عبد الوهاب المسيري

هل يمكننا تخيل لغة دقيقة تمامًا، ترتبط فيها الدوال بمدلولاتها بشكل حتمي آلي كامل، لا يفصل بينها فاصل، ولا توجد بينها ثغرات بحيث يكون لكل دال مدلول واحد (يمكن التوصل له من خلال الكمبيوتر)؟ إن حاولنا ذلك لاكتشفنا أن هذا لا ينطبق إلا على اللغة الجبرية الصارمة حيث لا نتعامل إلا مع رموز جبرية مثل «أ» و«ب» و«س». ولكن لغة الجبر لا تشير إلى أي شيء خارج ذاتها فهي بريئة تمامًا من الواقع (وكأنها آلهة حجرية قديمة هجرها عابدها)؛ ولذا يتطابق الدال بالمدلول تمامًا. بل ولا داعي للتطابق إذ إنه لا يوجد مدلول أساسًا. ف «أ» هي هي، و«ب» هي هي أيضًا، أما «س» (الإنسان) فهو يختفي تمامًا إذ لا حاجة لنا به في النسق الهندسي الجبري الحتمي.

ولكن لغة الدوال بدون مدلولات تستدعي «لغة» ثانية وهي لغة المدلولات دون دوال، وهي نقطة الحلم المطلق، نقطة بريئة أيضًا من الواقع، ذات كاملة، مكتفية بذاتها تفشل كل الدوال في التعبير عنها. وكلما اتسعت الرؤية، كما يقال، ضاقت العبارة، إلى أن نصل إلى النقطة التي يتوهم فيها صاحب الرؤية أنها - والعياذ بالله - متسعة إلى درجة أنها تشمل كل شيء، عندئذ لا تضيق العبارة وحسب، وإنما تتفتت وتتبعثر الكلمات والدوال ثم تتلاشى «ولا يبقى إلا الصمت».

وما بين النقطتين المستحيلتين - لغة الجبر والصمت، وما بين

النقطتين البريئتين من الواقع والإنسان، وما بين النقطتين المتجردتين من الزمان والمكان، وما بين النقطتين المصمتتين سنضع بحثنا. ولنبدأ بأن نؤكد أن أي نص كتبه يد إنسان هو مجموعة من الدوال التي تشير من خلال علاقاتها الداخلية إلى مجموعة من المدلولات والعلاقات الخارجية. ولا بد أن ثمة أفكارًا كونها هذا الإنسان كاتب النص في عقله وقلبه عن مجموعة من الظواهر والعلاقات في الواقع، أراد أن يعبر عنها من خلال مجموعة من الدوال يتصور أنها في علاقتها الداخلية تشكل الواقع (أو المدلول) الخارجي.

نقول «يتصور» عن عمد، لأن علاقة الدال بالمدلول في الخطاب الإنساني لا يمكن أن تكون علاقة ترادف أو تقابل كاملة. فثمة ثغرة قد تضيق أو تتسع تفصل بينهما. ولنضرب مثالاً، إن قلت «هذه تفاعلة حمراء» وعند طرف إصبعي تفاعلة حمراء مستديرة، ويستحسن أن يكون هناك شخص آخر يستمع إلى ما أقول، فإن الثغرة بين الدال والمدلول تكون ضيقة، فالرؤية هنا ضيقة إلى أقصى حد، فلا توجد سوى تفاعلة واحدة وإصبع يشير إليها. ومن ثم تتسع العبارة بما فيه الكفاية وتفي بالغرض. ولكن الثغرة مع هذه قائمة. ولعل صديقي كان جائعاً فنظر إلى التفاعلة نظرة نهمة، أو لعله كان لا يجب التفاح فنظر إلى التفاعلة بعدم اكتراث، ولعل كلمة «حمراء» استدعت في ذهنه أشياء أثارت همومه وأحزانه.

ولكن يمكن أن تتسع الثغرة تماماً، إذ ماذا لو قصصت عليكم قصة تلك التفاعلة التي أخبرني أمي عنها في طفولتي في دمنهور - تفاعلة حمراء تتدلى من أغصان شجرة خضراء في الجنة؟ سأجلس تحت الشجرة بإذن الله ولا أبوح، وإنما يدور في خاطري أنني أريدها فتتدلى بنفسها وتستقر في كفي ثم أكلها هنيئاً مريئاً. ولم تخبرني أمي هل سأكلها، أم أنها ستدخل في جوفي من خلال وجداني، تماماً مثلما نزلت في كفي من خلال رغباتي. كانت تضيق بأسئلتي الكثيرة، وتوفت رحمها الله وتركتني دون إجابة. وأين تفاعلة الفردوس الحمراء المغروسة في أحلامي من تلك الموجودة عند طرف إصبعي؟ «هاتان تفاعلتان حمراوان» وشتان شتان بينهما!

العلاقة بين الدال والمدلول أبعد ما تكون عن البساطة، فالدال الذي يستخدمه المرء، حتى قبل أن يدخله في علاقة مع المدلول، ليس أمرًا واضحًا محدد المعالم، وإنما هناك معناه الظاهر وتضمنياته الكامنة، وهناك ظلال المعاني التي يكتسبها من خلال الدوال المترادفة أو شبه المترادفة معه، ثم هناك كذلك علاقته بالدوال الأخرى داخل وخارج النص. وهناك عشرات الأبعاد الأخرى للدال في حد ذاته. أما المدلول في حد ذاته فهو الآخر غاية في التركيب. فقد يكون حالة عاطفية، أو حالة عقلية، أو حالة عاطفية عقلية، أو حالة عاطفية أصلها مادي، أو حالة مادية أصلها عاطفي، أو حالة مادية أصلها مادي، أو حالة مأساوية ملهاوية تاريخية رعوية يثرثر بها حكيم عجوز لا يعي تمامًا ما يقول.

ومحاولة الربط بين الدال والمدلول ليست سهلة ولا آلية ولا حتمية، فهي تمر عبر الزمان والمكان الإنسانيين. وهي علاقة تبدأ في عقل الإنسان وقلبه (باعتباره الكاتب)، وتنتهي في عقل الإنسان وقلبه (باعتباره المتلقي)، وعقل الإنسان قاصر كما يعرف البعض، وقلبه قُلْبٌ كما يتفق الجميع. فثمة مسافة طويلة من الأحلام والأوهام والرغبات والأهواء والأفكار والمصالح تفصل بين الدال والمدلول. كما نعرف أنه من المستحيل الإخبار عن الواقع كله حتى لو أراد المرء، فالواقع متشعب، وإدراكي له يجعله متزامنًا حتى في تاريخيته وزمنيته، أما الخطاب فبسيط وتتعاقد فيه الكلمات ولا تتزامن. والعلاقة بين البنية اللغوية التي ينتمي إليها الدال هي بنية سكونية بشكل عام، بينما البنية التاريخية أو الاجتماعية التي ينتمي إليها المدلول هي بنية متحركة متغيرة. ولذا ثمة فجوة زمنية دائمة بين الدال والمدلول قد تتزايد اتساعًا حتى يصبح الدال لا علاقة له بالمدلول. ويمكن القول إنه بينما نجد أن الدال رأسي سكوني يتسم بالاستمرارية والتزامن، فإن المدلول أفقي ويتسم بالتعاقب.

ويمكن أن استمر في محاولة توضيح مدى تركيبية الوضع الإنساني وحدود الخطاب الإنساني، ولكن هذا ليس بحثًا في ذلك الموضوع، ولذا فلنقبل بهذه المقولات ولنخلص منها إلى أنه لا بد من الاختيار بين عدد

لا حصر له من الدال للإخبار عن مدلول مركب متشابك مع عدد لا حصر له من المدلولات. وعملية الاختيار تعني إبقاء وتأكيد واستبعاد وتهميش، اختيار أو تأكيد لمعنى، واستبعاد أو تهميش لآخر، واختيار أو تأكيد لدال، واستبعاد أو تهميش لآخر، أي أنه لا يوجد تلاقي آلى (أو تلاحم ضروري وعضوي) بين الدال والمدلول، وإنما هناك حتمية الاختيار (أو الاجتهاد) الإنساني في محاولة مزاجية الدوال بالمدلولات، وهي عملية تتضمن قدرًا من التحيز لدال على حساب آخر. ولجانب من المدلول على حساب جانب آخر. وهي عملية تتفاوت في درجات النجاح، ولكنها لا يمكن أن تصل إلى النجاح (الجبري) المطلق، فهذه نقطة كما أسلفنا مستحيلة.

مزاجية الدال بالمدلول اختيار واجتهاد وتحيز، ولا يهم من منظور هذا البحث إن كان التحيز واعيًا أم غير واع، فالله وحده يعلم ماذا تحبى النفوس، ويبقى لنا نحن البشر أن نرصد بعض أشكال التحيز وبعض آليات تجاوزه. فنحن لن نسقط في عدمية التفكيكيين الذين يطرحون نقطة التطابق الكاملة والمستحيلة بين الدال والمدلول باعتبارها النقطة الوحيدة التي يتم فيها الإفصاح عن مكنونات النفس البشرية، وعن رؤيتنا للواقع. وحينما يكتشفون الثغرة بين الدال والمدلول يحاولون ملأها تمامًا، وحينما يفشلون (وهم حتمًا سيفشلون) يعلنون أنها الأبوريا: الهوة التي لا قرار لها، العدم الكامل، أو يعلنون انتهاء المشروع الإنساني كله بسبب فشل اللغة، فهي في منظورهم، مجرد كلام في كلام. ولا فرق عندهم بين لغو الحديث وأحسن القول.

والتحيزات التي سنرصدها في هذا البحث هي التحيزات الكامنة في كثير من المصطلحات التي نستخدمها في علومنا الإنسانية، بل وفي إدراكنا للكون ووصفنا لواقعنا. والتحيز الأكبر هو التحيز في هيكل المصطلحات وتوجهه العام: التحيز للعام على حساب الخاص، والعضوي على حساب المسامي، والمستقيم على حساب الدائري، والنثري على حساب المجازي، والكمي على حساب الكيفي. وهو موضوع دراستنا التالية التي نحن في سبيلنا إلى إنجازها. أما في هذه الدراسة فسنركز على

المصطلحات التي نستوردها من الخارج ولم نصكها أو ننتجها بأنفسنا. وقد أدمنا تمامًا عملية نقل المصطلحات دون إعمال فكر أو اجتهاد، ودون فحص أو تمحيص، وأصبحت العلوم الإنسانية العربية عقلها في أذنيها - تنقل آخر ما تسمع بأمانة وموضوعية تبعثان على الضحك. ولهذا فَقَدَ الإنسان العربي الحديث القدرة على تسمية الأشياء، ومن لا يسمي الأشياء يفقد السيطرة على الواقع والمقدرة على التعامل معه بكفاءة. أما من يدرك الواقع حق الإدراك ثم يصنّفه حسب مقولاته، ويسميه أسماء تتفق مع هذا الإدراك أمكنه الحركة فيه بقدر معقول من الحرية؛ إذ أنه سيراكم المعلومات داخل مقولاته وأطره هو، مما قد يزيد من مقدرته على التنبؤ بمسار هذا الواقع ويحسن من مقدرته على التعامل معه.

وقد يمكن نقل الكلمات الدالة على الآلات أو الأشياء لأن محيطها الدلالي محدد للغاية، فحينما نقول «سيارة» أو «تلفزيون» فلا يوجد صعوبة غير عادية في معرفة المقصود؛ لأن علاقة الدال بالمدلول واضحة ومحددة إلى حد كبير. فالدال بسيط، والمدلول نفسه محدود الدلالة، ولذا تظل الثغرة بينهما ضيقة. ويسري نفس الوضع على العلوم الطبيعية، فإن أشرنا إلى ظاهرة غليان الماء فمن المعروف أن درجة غليان الماء هي مائة درجة مئوية في ضغط جوي محدد، والماء نفسه يمكن تعريفه برموز جبرية. ولذا فالتجربة العلمية مضبوطة إلى حد كبير، حُيّد فيها بعدا الزمان والمكان إلى حد ما، ولذا فإن نقل مصطلحات العلوم الطبيعية مسألة أكثر سهولة من نقل مصطلحات العلوم الإنسانية، ومع هذا فهي عملية محفوفة بالمخاطر والمزالق.

وحينما ننتقل إلى العلوم الاجتماعية والإنسانية فالصورة تصبح مركبة إلى أقصى حد للأسباب التالية:

(أ) كل دال متجذر في تشكيل حضاري فريد له لغته المعجمية والحضارية الفريدة، ولذا فالدال (وحقله الدلالي) مرتبط بسياق حضاري محدد، ويشير إلى ظواهر بعينها دون غيرها.

(ب) الدال بطبيعة الحال لا يشير إلى مدلول خارجي وحسب،

وإنما يحتوي أيضًا على وجهة نظر من صكه وزاوية رؤيته واجتهاداته (منظوره). وتزداد الأمور تعقيدًا إذا كانت الدوال ذات طابع عقائدي من مصلحة فريق ما الترويج لها، إذ يصبح المنظور داخل الدال أكثر أهمية.

إن تحيز الدال هنا مزدوج: تحيز سياقه وتحيز من صاغه. وحيث أننا نترجم عادة من الانكليزية والفرنسية، وأحيانًا من اللغات الأوروبية الأخرى، ولا نترجم قط من لغات شرقية (مثل السواحلية أو اليابانية) فإن المصطلحات المترجمة عادة ما تحمل منظور صاحبها وهو المنظور الغربي.

١ - وأول أشكال التحيز الذي سنرصده هو التحيز الناجم عن ارتباط الدال بسياقه الحضاري الذي نشأ فيه ومحدودية حقله الدلالي، ومن ثم قصوره عن الإخبار عن مدلوله إن نقل إلى سياق حضاري جديد. بل ويصبح الدال في هذه الحالة مصدرًا لدلالات لا توجد في الواقع، وستارةً يخفي جوانب من المدلول.

فعلی سبیل المثال حينما نستخدم كلمة «أسرة» في سياق غربي علماني حديث فإننا سنجد أن مدلولها مختلف عن كلمة «أسرة» في سياق عربي إسلامي تقليدي، فدرجة التماسك بين أعضاء الأسرة في السياق الأول مختلفة عنها في السياق الثاني، ولا بد أن تضامن أعضاء الأسرة في المجتمع الأول التعاقدي التناحري يختلف عن تضامن أعضاء الأسرة في المجتمع التراحمي. ومسؤولية الأبوين في المجتمع التعاقدي تختلف عنها تمامًا عن مسؤوليتهما في المجتمع التراحمي، ففي المجتمع الأول تنتهي تمامًا المسؤولية العاطفية والأخلاقية عند بلوغ الطفل السادسة عشرة، وتنتهي المسؤولية الاقتصادية بعد ذلك بوضع سنين. وحتى بعد ظهور الأسرة النووية في المجتمعات الإسلامية نجد أن علاقتها لا تزال قوية بالأسرة الممتدة، وتظل مسؤولية الأبوين قائمة رغم بلوغ أطفالهما سن الأربعين أو ما يزيد وهكذا. وبالتالي فاستخدام نفس المصطلح للإشارة لظاهرتين مختلفتين هو نوع من أنواع التحيز لإحدى الظاهرتين على حساب الأخرى، ولعله كان من الأفضل استخدام دالين بدلاً من

واحد، أو استخدام دال واحد مع توضيح الاختلافات في المدلول.

ولنضرب مثلاً مستخدمين ظاهرة «التدين» وهي ظاهرة إنسانية عامة. ولنتصور قارئاً عربياً مسلماً أو مسيحياً يقرأ مقالة عن «تزايد التدين بين يهود الولايات المتحدة»، وستخبره المقالة إن معدلات التدين تتزايد بينهم. وسيصدق القارئ ذلك لأول وهلة، وسيتصور أن أعضاء الجماعات اليهودية قد بدأوا بالفعل يعودون إلى دينهم وإلى ممارسة شعائره. ولكنه لو دقق النظر لاكتشف أن تزايد التدين بين يهود الولايات المتحدة له مضمون مختلف تماماً عن تصوراته هو، بل إن تزايد التدين بين يهود إسرائيل ويهود اليمن أمر مختلف عن تزايد التدين بين يهود الولايات المتحدة. ففي اليمن يعني تزايد معدلات التدين تزايد الالتزام بالشعائر الدينية اليهودية (خاصة الأوامر والنواهي) أما في الولايات المتحدة فنحن نجد بين المؤشرات المستخدمة إقامة شعائر السبت مثلاً، ولكن ما يتزايد ليس التمسك بكل شعائر السبت، إذ يظل السبت هو (الويك إند)، أي عطلة نهاية الأسبوع، وكل ما يحدث هو أن بعض اليهود من قبيل الحنين الرومانسي إلى الماضي والتمسك بالهوية الإثنية يقيمون بعض هذه الشعائر، وهي عادة شعائر احتفالية لا تتطلب حرماناً من اللذة والإشباع (كأن يحتفل المسلم برمضان عن طريق إيقاد الفوانيس وأكل الكنافة وشرب قمر الدين بدلاً من الصوم والصلاة). ولذا فهم يشعلون شموع السبت ويتناولون بعض الأطعمة الخاصة دون الامتناع عن العمل أو السير أو النزهة كما تتطلب تعاليم دينهم. أما في عيد الغفران فهم مثلاً يرتلون دعاء كل النذور وقد يذهبون إلى المعبد اليهودي ولكنهم لا يمتنعون عن الطعام أو الجماع الجنسي كما تتطلب العقيدة اليهودية. ويصنف كل هذا على أنه «تزايد معدلات التدين». وحينما يطالع القارئ العربي هذه العبارة فإنه يسقط اعتقاداته هو عليها ويعطيها مدلولاً مغايراً تماماً لمدلولها الحقيقي.

ولنضرب مثلاً ثالثاً أكثر إثارة وهو كلمة «ماسونية»، فالماسونية حركة ظهرت في بلاد أوروبا البروتستانتية (خاصة انكلترا) واكتسبت مضموناً محدداً فيها. ثم انتقلت الحركة إلى البلاد الكاثوليكية واكتسبت

فيها مضمونًا مختلفًا تمامًا، ومع هذا سميت «ماسونية» أيضًا، وحين انتقلت إلى بلاد العالم الثالث اكتسبت مضمونًا ثالثًا مغايرًا لما كانت عليه من قبل ومع هذا سميت «ماسونية» أيضًا.

وكثير من المصطلحات قد تكون مستقرة في سياقها التاريخي والحضاري وتفي بالغرض الذي صكت من أجله لدرجة معقولة، لكنها تصبح لا معنى لها تقريبًا، بل وتصبح أداة تضليل، حينما تنقل إلى سياق آخر. ولعل مصطلح «العصور الوسطى» مثل جيد على ذلك، فالعصور الوسطى في الغرب هي عصور تقع بين العصور القديمة (اليونانية والرومانية) والعصور الحديثة التي تبدأ بما يسمى عصر النهضة، أو هكذا يرى أهل الغرب، وهم أحرار تمامًا فيما يظنون ويعتقدون. ولكن حين ينقل هذا المصطلح من سياقه ويطبق على التاريخ الإسلامي ليشمل نفس الفترة المتزامنة معه (عصر الرسالة والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وبدايات العصر العثماني) يصبح لا معنى له. ولنتخيل تطبيق هذا المصطلح على الصين مثلًا التي وصل تاريخها إحدى قممها الشاهقة إبان هذه الفترة.

ونفس الشيء يسري على مصطلح «عصر النهضة» فهو مصطلح يصف نقطة تحول شبه كاملة في التاريخ الغربي من وجهة نظر الإنسان الغربي، كما أنه تحول إيجابي من منظوره. ولكن أن يستورد هذا المصطلح بعض المؤرخين العرب ليصفوا التاريخ العربي بعد وصول الحملة الفرنسية وتراجع الخطاب الحضاري المستقل وبداية الهيمنة الإمبريالية والتبعية الاقتصادية والثقافية فهذا أمر ولا شك مضلل. وقد أثار المفكر العربي منير شفيق قضية مصطلح «عصر النهضة» حينما تساءل نهضة من ولحساب من وعلى حساب من؟

كما أنه شاع في الآونة الأخيرة استخدام مصطلح «الاستنارة والتنوير» للإشارة لكتابات بعض الكتاب العقلانيين مثل سلامة موسى وشبلي شميل وأحمد لطفي السيد وغيرهم ممن حرصوا على نقل الفكر العقلاني الغربي دون إبداع كبير. ومصطلح الاستنارة في الغرب يشير إلى

مجموعة من السمات والخصائص لا نعتقد أنها تتوفر في التفكير العربي الذي يقال له «تنويري». ولكن الأدهى من هذا أن ثمة أدبيات كثيرة غربية صدرت منذ أونة ليست بالبعيدة تبين تناقضات الفكر التنويري، بل ويذهب بعضها إلى أن ظواهر مثل النازية والإبادة هي ظواهر كامنة في فكرة حركة الاستنارة، وكان يجدر بمن يستخدمون هذا المصطلح أن يأخذوا في الاعتبار هذه الأدبيات التي تعيد النظر في الظاهرة.

٢ - وثاني مصادر التحيز هو أن المصطلح المستورد من حضارة إلى أخرى يحمل وجهة نظر صاحبه، وسنكتشف أن صاحب زاوية الرؤية يضع نفسه عادة في المركز، ويعيد ترتيب كل التفاصيل حسبما يتفق ورؤيته. خذ على سبيل المثال مصطلح مثل «عصر الاكتشافات» فهو مصطلح يعني أن شخصاً ما قد اكتشف أرضاً جديدة (ولذا يطلق عليها «العالم الجديد»)، فيها بشر وأشجار وأحجار وأزهار وزواحف ورجال وقوارض. ولكن ما يهم في المصطلح ليس المكان المكتشف في حد ذاته، فهذا أمر هامشي، وإنما تجربة المكتشف، وفي هذه الحالة هو الإنسان الغربي في عصر النهضة (عصر نهضته) حينما بدأ يخرج من القارة الأوروبية فجهز السفن ليعرف وجه الأرض «واكتشف» الأمريكيتين ورأس الرجاء الصالح، «واكتشف» أفريقيا وبعض أجزاء من آسيا. ولكن ثمة وجهة نظر مغايرة تماماً هي رؤية سكان هذه الأماكن. فالأمر بطبيعة الحال لم يكن اكتشافاً بالنسبة لهم، فقد كانوا يصنعون تاريخهم وينون حضاراتهم منذ آلاف السنين، فعالمهم ليس جديداً، بل هو قديم قدم الدنيا بأسرها. ما حدث - من وجهة نظرهم - أن الإنسان الغربي قد جاء ليتاجر معهم، ثم بدأ يجيش الجيوش ضدهم ويغزو أرضهم ويبيد غالبيتهم ويهجر ويستعبد الباقي. فحركة الاكتشافات بالنسبة لسكان هذه البلاد هي في واقع الأمر حركة الاستعمار الاستيطاني الغربي الذي وصل إلى قمته في الحركة الامبريالية في نهاية القرن التاسع عشر، حين تم اقتسام العالم ونهبه بكفاءة لم تعهدها الإنسانية من قبل.

ويتضح التحيز الغربي في مصطلحين شائعين مثل «الحرب العالمية الأولى»، و«الحرب العالمية الثانية»، هاتان الحربان كانتا عالميتين من منظور

الإنسان الأوروبي وحسب، فظن أن أوروبا هي العالم (أما ما عدا ذلك فأسواق ومستعمرات). فإذا اندلعت نيران الحرب في أوروبا فهذا يعني أنها اندلعت في «العالم» بأسره، كما يراه الإنسان الغربي. ويلاحظ استمرار هذا الاستخدام في اصطلاحات مثل «المغني العالمي» خوليو مثلاً، وهي عبارة تعني، المغني الاسباني، أو حين يقال لنا «يجب أن نرتفع إلى مستوى العالمية بأدبنا»، أي يجب أن نصل إلى المستوى الذي يمكن للغرب أن يفهم أدبنا ويترجمه ويعترف به. ونفس الاستخدام يوجد في مصطلح مثل: «الرأي العام العالمي»، وهي عبارة تعني في واقع الأمر «الرأي العام الغربي». ويلاحظ أن هذا الاستخدام لكلمة «عالمي» هو الاستخدام السائد في الكتابات الصهيونية الأولى، فحينما يقول هرتزل مثلاً أنه يسعى «لإنشاء دولة يهودية يضمها القانون الدولي العام»، فهو كان يعني في واقع الأمر، «دولة يضمها القانون الغربي»، أي تضمها القوى الامبريالية الغربية التي قسمت العالم بينها وفرضت عليه شريعة الغاب التي لا تعرف إلا القوة العسكرية. ومؤخرًا ظهر اصطلاح «النظام العالمي الجديد» ليُضاف إلى عملية التعمية والتسويف، وليخبيئ عملية تزايد التحكم الغربي في العالم.

ونقوم أحياناً باستيراد مصطلحات لا تعكس منظور صاحبها وحسب، وإنما تعكس أيضاً جهله وعنصريته. ولنأخذ مصطلحاً شائعاً مثل: «معاداة السامية»، سنكتشف أنه ترجمة حرفية (أمانة) لعبارة Anti-Semitism، ويتحذلق البعض ويقول «اللاسامية»، أو «ضد السامية».

وليلاحظ أن القضية تحولت من قضية رصد ظاهرة وتسميتها إلى قضية مدى دقة ترجمة المصطلح، بغض النظر عن مدى دقة وتفسيرية الدال ومدى مطابقته للواقع. وقد نحت مصطلح «معاداة السامية» في أوروبا في القرن التاسع عشر وانتشر فيها.

وهو يفترض أن ثمة هوة سحيقة من الاختلافات العرقية البيولوجية التي تفصل بين الأعراق والحضارات، وخاصة بين الساميين والآريين، وأن اليهود هم ممثلو الحضارة السامية. وكلا الافتراضين

خاطئ تماماً، فنحن نعرف أنه لا يوجد عرق خالص في أي مكان في العالم.

إذ تختلط الناس والأجناس (ولعل كلاً من العرب وأعضاء الجماعات اليهودية خير مثل على ذلك)، كما تختلط الحضارات وتتفاعل. ولا يمكن تصور الحضارة الغربية دون كل المؤثرات الشرقية التي صبت فيها (من تراث مصري قديم وبابلي ثم عربي إسلامي). كما لا يمكن تصور الحضارة العربية الإسلامية دون كل المؤثرات الأجنبية التي صبت فيها. ويرى دارسو التشكيل الحضاري السامي أن خير ممثل له هو العرب، وأن العربية هي أقرب اللغات للغة السامية الأصلية الأولى (الافتراضية) التي تفرعت عنها كل اللغات السامية. ومعظم العلماء الغربيين والمسلمين يعرفون هذه الأمور. فهي ليست من اكتشافنا أو اختراعنا، بل إنها إحدى بدييات علم الانثروبولوجي المعاصر، ومع هذا نصر على استخدام هذا المصطلح الذي يعبر عن جهل أوروبا وعنصريتها في القرن التاسع عشر وعن نظرتها للعالم.

ونفس الشيء يسري على مصطلح مثل «العلمانية»، والعلمانية ظاهرة تعود أصولها للحضارة الغربية ثم انتشرت منها إلى بقية بلاد العالم من خلال آليات عديدة من أهمها الامبريالية الغربية التي دولت الظاهرة العلمانية، وقابلية بعض المجتمعات للعلمنة. الخ. وتوجد تجربة علمانية في البلاد البروتستانتية في الغرب مختلفة عنها في البلاد الكاثوليكية. كما أن الكلمة الانكليزية Secular سكيولار تختلف في معناها عن كلمة Laique لاثيك الفرنسية. ونحن نذهب إلى أن الإنسان الغربي يعيش داخل التجربة العلمانية، ولذا فهو لم يفهم طبيعتها بتجارب أخرى مماثلة. وحينما أردنا أن نعبر عن هذه الظاهرة بالعربية لم ندرس الظاهرة في تعريفاتها المختلفة، ولم ننظر إليها في سياقها، وإنما تحبطينا في الترجمة من الفرنسية أو الانكليزية (إذ لم يكلف أحد خاطره بدراسة ترجمة المصطلح بالتركية أو الفارسية أو السواحلية). وحينما أراد أحد المفكرين أن يعبر عن الظاهرة بكلمة «الدينيوية» أو «الزمنية» كمحاولة للخروج من المعجم الغربي بتضميناته المحددة، قامت الدنيا ولم تقعد. وسنكتشف أنه

في الحوار الدائر بخصوص المصطلح ثمة مرجعية غربية عميقة كامنة تجعل من العسير على المتحاورين اكتشاف النقص والخلل في المصطلحات الغربية. انكليزية كانت أم فرنسية، وأن المصطلح العربي المقترح له مقدرة تفسيرية أعلى من المصطلح الانكليزي أو ترجمته الحرفية.

بل إننا أحيانًا ننسى مصطلحًا عربيًا قديمًا وصف ظاهرة ما من منظورنا، وتبنى مصطلحًا غربيًا يصف نفس الظاهرة ولكن من منظور غربي، ثم يقوم المصطلح الغربي بطرد المصطلح العربي. ومصطلح «الحروب الصليبية» ترجمة كلمة Crusades مثل جيد على ذلك. فهذا المصطلح استخدمه الغزاة الغربيون الذين أتوا إلى هذه البلاد في القرن الثاني عشر في عدة حملات وغزوات وأقاموا دويلات استيطانية. والدراسة التاريخية تبين بما لا يقبل الشك أن هذه الحملات كانت مقدمات للغزوة الامبريالية الغربية الحديثة، وأنها كانت محاولة لحل بعض مشاكل المجتمع الغربي الاقتصادية والاجتماعية. ولذا فهذه الحملات التي سماها الغرب «صليبية» قامت بالهجوم على الدولة البيزنطية المسيحية ونهبت بيزنطة واستعبدت كثيرًا من المسيحيين العرب، بل وتحالفت بعض الأحيان مع بعض الحكام المسلمين، ولكنها مع هذا استخدمت ديباجات مسيحية ذات مقدرة تعبوية لدى الجماهير المسيحية في الغرب. وكان المؤرخون العرب يسمونها «حروب الفرنجة» نسبة إلى (الفرانك)، أي سكان فرنسا الذين كانوا يشكلون غالبية جنود هذه الحملات، فهذا هو المنظور التاريخي الدقيق، أو فلنقل هذا هو منظور المؤرخين المسلمين المعاصرين لهذه الحملات وهكذا تلقوها ورصدوها، وهو مصطلح في تصورنا أكثر دقة. أما كلمة «صليبية» فهي تعكس رغبة من يجرد هذه الحملات في أن يخفي أهدافه الدنيوية الحقيقية، ويبرز الديباجات، ويؤكد المنظور على حساب الحقيقة التاريخية. ومع الأسف تبيننا هذا المصطلح الغربي في الكتابات العربية والإسلامية المعاصرة، ونسينا المصطلح العربي الأدق.

٣ - ويظهر التحيز حين ننقل كلمات مختلطة الدلالة من لغاتها.

وقد ظهر في اللغات الغربية مصطلح Women's Liberation Movement الذي يترجم عادة بـ «حركة تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها»، وهذا ما

كان يفهم من هذا المصطلح بشكل عام في اللغات الأوروبية. ثم ظهر منذ عدة سنوات مصطلح آخر هو Feminism وحل محل المصطلح الأول وكأنهما مترادفان، أو كأن المصطلح الأخير أكثر شمولاً من المصطلح الأول. ولكننا لو دققنا النظر في المصطلح الأخير لوجدنا أنه يشير في واقع الأمر إلى مدلولين مختلفين تمام الاختلاف: حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى، وهما حركتان - في تصورنا - مختلفتان، بل متناقضتان. فحركة تحرير المرأة هي حركة اجتماعية، بمعنى أنها تدرك المرأة باعتبارها جزءاً من المجتمع، ومن ثم تحاول أن تدافع عن حقوقها داخل المجتمع. ورغم أن هذه الحركة، في رأينا - حركة علمانية في رؤيتها، تستند إلى فكرة العقد الاجتماعي (والإنسان الطبيعي والإنسان الاقتصادي) إلا أن مثلها الأعلى يحوي داخله أبعاداً إنسانية اجتماعية، لعلها بقايا رؤى المجتمع التقليدي الديني الغربي. ومع تصاعد معدلات العلمنة بدأت هذه البقايا في التبخر وتراجع البعد الاجتماعي، وتم إدراك الأنثى خارج أي سياق اجتماعي، كأنها كائن قائم بذاته. وظهرت نظريات تتحدث عن ذكورة أو أنوثة اللغة، والفهم الأنثوي للتاريخ والجانب الذكوري أو الأنثوي في رؤية الإنسان للإله، أي أننا هنا لسنا أمام قضية حقوق المرأة الاجتماعية أو الاقتصادية أو حتى الثقافية، وإنما نحن أمام رؤية معرفية متكاملة نابعة من الإيمان بأن الأنثى كيان منفصل عن الذكر متمركزة حول ذاتها، بل وفي حالة صراع تاريخي كوني معه، ومن هنا تسميتنا لها «حركة التمركز حول الأنثى». وبالتالي فالبرنامج الإصلاحية الذي تطرحه لا يهدف إلى تغيير القوانين أو السياق الاجتماعي للحفاظ على إنسانية المرأة باعتبارها أمًا وزوجة وابنة وعضواً في المجتمع، وإنما يهدف إلى تغيير اللغة الإنسانية ومسار التاريخ والطبيعة البشرية ذاتها حتى يتم اختلاط الأدوار تماماً، وحتى يتحسن أداء المرأة في إدارة الصراع مع الرجل. وقد نتفق أو نختلف في هذا الوصف للحركتين لكن المهم أنهما حركتان مختلفتان تستخدم كلمة واحدة للإشارة لهما في اللغات الأوروبية. وقد بدأنا نحن أيضاً في اتباع هذا الأسلوب، ونشير إلى كل من حركات تحرير المرأة وحركة التمركز حول

الأثنى بأنها «حركة تحرير المرأة». وفي هذا خلل وأيما خلل، وهو تغيب لمجموعة من الفروق الجوهرية بين الحركتين.

ولنأخذ مصطلحًا مثل Rationalization وهو ترجمة انكليزية لمصطلح ألماني استخدمه العالم الألماني فيبر. ويترجم المصطلح بالترشيد أو العقلنة إذ أنه اشتق من كلمة Reason التي تعني «عقل». وتعرف المعاجم عملية الترشيد بأنها عملية استبعاد الغيب والسحر من المعرفة وتطبيق المناهج العلمية البيروقراطية اللاشخصية على إدارة المجتمع. حسنًا! ولكن فيبر نفسه عرف الترشيد بأنه تحويل العالم إلى حالة المصنع، كما قال إن عملية الترشيد ستؤدي لا إلى مزيد من الحرية للإنسان وإنما إلى القفص الحديدي وإلى أزمة المعنى. ويرى كثير من دارسي المجتمعات المتقدمة الحديثة أن كثيرًا من نبوءات فيبر قد تحققت، وأن ظهور نظم شمولية منهجية رشيدة مثل النظام النازي هو تعبير متطرف عن عملية الترشيد، وأن تنميط الوجود في المجتمعات الديمقراطية هو تعبير عادي عنها، وأنها مجتمعات لم تعد تسأل لماذا، إنما تسأل كيف، وتركز على الاجراءات دون الغايات، ولذا فهي مجتمعات تنغلق داخل المرئي والمحسوس.

بعد نبوءات فيبر وبعد تحقق معظمها، ما زلنا نصر على تسمية الظاهرة «ترشيد». ألم يكن الوقت أن تسمى الأشياء بأسمائها، وإذا كانت الظاهرة بدأت بالترشيد وانتهت بالسجن، فلم لا نسميها بمصطلح آخر لنين الجوانب المظلمة فيها التي ظهرت من خلال الممارسة التاريخية؟

٤ - وأحيانًا يبلغ التردي منتهاه، فلا نترجم المصطلح، وإنما نكتفي بتعريبه: فنقول «الكلاسيكية» و«الرومانتيكية» و«البرغماتية» بل و«الباروك» وهي كلمات لا معنى لها بالعربية، ورغم أنها قد تعني الكثير داخل سياقها ومعجمها الحضاري. ف «الرومانتيكية» نسبة إلى كلمة «رومانس» الغربية، هي كلمة تستدعي أحاسيس بالدهشة والخرافة مما يستدعي المجال الدلالي لكلمة «رومانتيكية»، أما في العربية فهي منبئة الصلة بأي كلمة أخرى، ولذا فهي تقف شيئًا رهيبًا مكثفًا بذاته.

ومن أهم المصطلحات الغربية وأخطرها، والتي تم تعريبها دون ترجمة، كلمة «ايدولوجية»، وهي كلمة مختلطة الدلالات تمامًا في اللغات الأوروبية، تعني أحيانًا الشيء ونقيضه، فهي تعني مجموعة الأفكار التي تشكل دليلاً للعمل والممارسة لدى جماعة ما (الايديولوجية الثورية التي ستغير المجتمع)، وهي تعني في الوقت ذاته مجموعة من الأفكار الوهمية التي تحجب الرؤية، وتجعل الموضوعية صعبة بل ومستحيلة (هذه هي ايدولوجية البورجوازية الهابطة، وهذه مجرد رؤية ايدولوجية). وتوجد إلى جانب ذلك معانٍ أخرى عديدة متضاربة. هذه الفوضى الدلالية كان لا بد أن تؤدي إلى استبعاد هذا المصطلح، إذ ما فائدة نقل مصطلح إلى لغتنا وهو وسيلة فاسدة للتعبير في لغته؟ ولكن مع ذلك تم نقله بخيره وشره، وبحلوه ومره، بل ومنطوقه. بل وهناك من الكتاب من يشتق أفعالاً وأسماء منه، فيتحدثون عن أن فلاناً «يؤدلج» ويشيرون إلى «التأدلج» و«التأدلج» ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولا شك أن هذه الكلمات البهلوانية تكتسب شيئاً من المعنى في عقل صاحبها بسبب مرجعيته الغربية، ولكنها تظل شيئاً مضحكاً للقارئ العربي، أو لعلها تولد في نفسه الرهبة.

والحركات البهلوانية الأخيرة تعود إلى نقطة قصور ضخمة ناجمة عن عملية النقل عن طريق التعريب، وهي صعوبة نحت أفعال منها، فهي كلمات مرتبطة بالمعجم الغربي. ونحن نعرف أن اللغات الهندية الأوروبية تستند أساساً إلى الاسم، أما بالنسبة للغات السامية (وعلى رأسها العربية) فالأساس فيها ليس الاسم، وإنما الفعل، ومع تزايد استيراد هذه الكلمات بدأت تضمّر في العلوم الإنسانية العربية القدرة على الاشتقاق وتوليد مصطلحات فرعية من المصطلح الأصلي مستخدمين ميزان الصرف. بل وبدأ يضمّر المجال الدلالي لبعض الكلمات العربية إذ أن المصطلح الغربي يقوم إما بطردها تمامًا (كما حدث في مصطلح حرب «الفرنجة») أو التشويش عليها وإصابتها بالضمور.

وظاهرة التعريب منتشرة، وبشكل مَرَضِي في الكتابات العربية عن الصهيونية واليهودية، إذ أصبح من أهم مظاهر الدقة العلمية والفتنة

والألمعية، أن يستخدم الباحث كلمات من أصل عبري ينقلها بحروف عربية. ومن هنا نقول حزبي «المعراخ» و«الليكود» بدلاً من حزبي العمال والمحافظين (مع أننا لا نشير لحزبي العمال والمحافظين البريطانيين على أنهما حزبي «الليبور» و«الكونسرفاتيف»)، ونتحدث عن «الكيبوتس» و«الموشا»، بل وندخل صيغة الجمع العبرية فنقول «الكيبوتسيم» و«الموشايم» (بل ويتحدثون عن «الحالوتسيوت»، أي الريادة). ولا نشير إلى «جهاز المخابرات الإسرائيلية»، وإنما إلى «الموساد»، ويبدو أن عدونا الصهيوني قد روضنا تمامًا فأصبحنا نكرر وراءه ما يقول بكل أمانة وإخلاص، حتى ولو كانت التركيبة الصوتية (مثل تسي) غير مألوقة للقارئ العربي، مع أن محاولة نطق مثل هذه التركيبة وغيرها يولد عند العربي إحساسًا عميقًا بالاستلاب والاستعداد للخضوع للناجم عن ترجمة المصطلحات.

٥ - ومن المصادر الأساسية للتحيز والخلل اشتقاق الدوال من أسماء العلم، فعلى سبيل المثال تطلق المنظمة الصهيونية على نفسها عبارة World Zionist organization (وورلد زايونيست أورغانيزيشن) «المنظمة الصهيونية العالمية» (العالمية مرة أخرى) فنقوم نحن بترجمة اسم العلم هذا، ويتحول بدلاً من اسم علم أطلقته المنظمة على نفسها إلى دال يدعي أنه يشير إلى مجال دلالي حقيقي، ويبدأ الحديث عن هذه المنظمة كما لو كانت عالمية بالفعل، مع أن ما يزيد على ٩٩٪ من أعضائها في العالم الغربي، وربما ما يزيد على ٨٠٪ من هؤلاء في الولايات المتحدة - أي أنها غربية، مركزها الولايات المتحدة. وعلى كل هذا أمر منطقي ومتوقع، فحوالي نصف يهود العالم يوجدون في الولايات المتحدة وما يزيد على ٩٥٪ من يهود العالم إما في العالم الغربي أو في بلاد استيطانية مرتبطة به (جنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا) . . . ورغم كل هذه الحقائق إلا أننا نستمر في الحديث عن «الحركة الصهيونية العالمية» و«المنظمة الصهيونية العالمية» لا «الحركة الصهيونية الغربية/الأمريكية» مثلاً.

وقد واجه الخطاب السياسي الغربي وضعًا مقارنًا مع الحركة النازية

التي كانت تسمى نفسها الحركة الاشتراكية الوطنية (وهذا هو منظورها لنفسها وهذا هو ادعاؤها)، وهي تسمية تتضمن قدرًا من تعظيم الذات، ولذا سقطت هذه العبارة، ولا يشير الغربيون إلا إلى النازيين والإبادة النازية. ولنتخيل التناقض المضحك الكامن في عبارة مثل «الإرهاب الاشتراكي الوطني»!

وهناك تحيز آخر قريب من هذا وهو تقبل ادعاءات الإنسان عن نفسه كأنها حقيقة تصنيفية مطلقة. وهذا ما يحدث عادةً في استطلاعات الرأي. فعلى سبيل المثال توجد أعداد غفيرة من اليهود الأمريكيين الذين يصنفون أنفسهم على أنهم صهاينة ويسمون أنفسهم كذلك، بل وينضمون للمنظمة الصهيونية (العالمية) ويحضرون كل الاجتماعات ويدفعون الاشتراكات والتبرعات، ولكنهم مع هذا لا يهاجرون قط إلى إسرائيل بل ولا يساعدونها سياسيًا إن تعارض هذا مع مصالحهم أو تهدد وضعهم، فهؤلاء الصهاينة لا يمارسون أي نشاط صهيوني حقيقي. بل ويذهب بن غوريون إلى أن صهيونيتهم الزائفة إنما هي وسيلة لتخبة الدرجات العالية من الاندماج والانصهار. ولذا اقترح بن غوريون حلاً لهذه الورطة بتسميتهم «أصدقاء صهيون» على أن يقتصر الدال «صهيوني» على هؤلاء اليهود المستعدين للهجرة الاستيطانية.

بل وسنجد أن مصطلح «يهودي» ذاته، هو أيضًا مصطلح يطلقه البعض على نفسه رغم غياب أي سمات يهودية في حياته أو أي استعداد للالتزام بقيم يهودية. ولعل ما يساعد هؤلاء على الاستمرار في ادعائهم أن الفقه اليهودي ذاته لم يحدد قط من هو اليهودي بدقة، بل ترك الأمر على عواهنه. وقد تدهور الأمر إلى حد أن أحد التعريفات المعتمدة لليهودي «أنه من يشعر في قرارة نفسه بذلك» مما يعني غياب أي معايير للحكم ومما يفقد الدال «يهودي» أي مجال دلالي خارجي، ويتحول إلى حالة نفسية، تختلف من فرد لآخر.

وقد ظهرت المشكلة وبحدة مع تهجير اليهود السوفيات إذ حضر معهم عدد من غير اليهود الذين ادعوا اليهودية ليستفيدوا من التسهيلات

المنوحة للمهاجرين، كما جاء عدد ضخم من أشباه اليهود، وهؤلاء أفراد كان جدهم يهودياً ولا توجد أي علاقة أخرى لهم باليهودية.

وعلى كل مهما كانت المشكلة بين اليهود أنفسهم فنحن نجابه مشكلة فقهية ناجمة عن المشكلة اللغوية. والسؤال الذي يطرح نفسه: هو هل يمكن للمسلمين أن يقبلوا التعريف الذاتي لليهودي بأنه من يشعر في قرارة نفسه بذلك، أو حتى التعريفات الصهيونية الأخرى التي تجعل من اليهودية انتماء عرقياً لا علاقة له بأي إيمان أو أخلاق، أم أنهم لا بد أن يتمسكوا بالتعريف الإسلامي لليهودي؟ وإن كان التعريف الإسلامي لا ينطبق على غالبية يهود العالم، فماذا نسميهم إذن؟ هذه قضية شائكة للغاية على الفقه الإسلامي التعامل معها.

وقد اكتشف الشهرستاني تحايلاً مائلاً، فقد لاحظ أن إحدى الجماعات الغنوصية (الميديائيون) سموا أنفسهم بالصابئة، وهم في واقع الأمر ليسوا الصابئة الذين يشير إليهم القرآن. وقد فعلوا ذلك حتى يطبق عليهم النص القرآني فيصنفوا على أنهم من أهل الكتاب ويتمتعون بما لديهم من حقوق.

٦ - والمصطلحات المستخدمة في الخطاب الحضاري والسياسي الغربي لوصف أعضاء الجماعات اليهودية ومصطلحات متحيزة إلى أقصى درجة، فهي متجذرة في الرؤية التوراتية التي ورثتها المسيحية. وقد حاولت المسيحية الكاثوليكية إعادة تفسيرها وإعطاءها طابعاً مجازياً ولكنها عادت واكتسبت مضموناً حرفياً مع الإصلاح الديني وتساعد معدلات العلمنة وتدور هذه الرؤية حول عنصرين أساسيين، والعلاقة بينهما:

(أ) أول هذين العنصرين هو «الشعب» (الشعب المختار أو الشعب المقدس)، وهو المصطلح المستخدم للإشارة إلى اليهود، ولذا فهم أيضاً «الشعب اليهودي»، وهو مصطلح يفترض أن اليهود يكونون كتلة بشرية تتسم بقدر كبير من الوحدة والتماسك يتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، كتلة لها «تاريخ يهودي» مستقل يتسم بقدر عال من الاستمرارية. ولذا فالإنسان الغربي يرى أعضاء الجماعات اليهودية في تنوعهم الهائل على

أنهم يكونون كيانًا واحدًا رغم أن هؤلاء اليهود كانوا عبرانيين في بادئ الأمر ثم تطورت عقيدتهم من العبادة الإسرائيلية القبرانية إلى العقيدة اليهودية الحاخامية، وتفرع عنها اليهودية السامرية وظهر كذلك القراءون والمارانو والدونمه والفلاشاه. ثم نجد في العصر الحديث اليهود من المحافظين والإصلاحيين والارثوذكس، ثم اليهود الملحدون والاثنيين وغيرهم. وتوجد عشرات الجماعات اليهودية غير المتجانسة سياسيًا وحضاريًا. كل هؤلاء رأهم الغرب داخل تمييزه التوراتي باعتبارهم العبرانيين أو اليهود أو الشعب المختار الذي تمتد إليه ذراع الإله القوية تقوده في تجواله من مصر وفي صعوده إلى أرض الميعاد!

(ب) ثمة افتراض في الخطاب التوراتي أن ثمة علاقة عضوية (حلولية) بين الشعب المختار والأرض الموعودة أو بين اليهود وفلسطين، وأن ثمة مركزية لليهود في تاريخ فلسطين ومركزية لفلسطين في تاريخ اليهود، إذ أن الرب قد وعد فلسطين لشعبه وجعلها مقصورة عليه، مما أدى إلى تجرد فلسطين وتحويلها إلى (إرتس إسرائيل) في الوجدان الغربي. وهذه الأرض المقدسة كانت تدعى «رتنو» عند الفراعنة، ثم أصبحت «كنعان»، وأصبح ساحلها يدعى «فلسطين»، ولفترة وجيزة سميت بعض أجزائها «يهودا وإسرائيل» ثم سميت كلها بعد ذلك «فلسطين». وأصبحت مقاطعة رومانية ثم بيزنطية مسيحية وأخيرًا جزءًا من الدولة الإسلامية، رغم كل هذا ظلت تدعى «إسرائيل» (لا توجد كلمة «فلسطين» في اللغة العبرية، ولذا يمكن أن ترد العبارة التالية في الكتب المكتوبة بالعبرية: في عام ١٩٢٣ قامت فرقة مسرحية يهودية بأداء تمثيلية في إرتس إسرائيل).

وقد تفرع من هذين المفهومين (استمرار الشعب اليهودي ومركزية علاقته بفلسطين) مصطلحات مثل «الشتات»، و«المنفى» والتطلع إلى «العودة»، وهي مصطلحات لا يمكن فهمها إلا في إطار الإيمان بمركزية فلسطين في حياة اليهود، فهم حينما يبتعدون عنها فإنهم «يتشتتون» ويشعرون بالغبرة و«المنفى»، ويريدون «العودة» إليها. وعبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» لا يمكن فهمها إلا في إطار تصور أن اليهود

شعب واحد مستمر في وحدته عبر التاريخ، وأن أرض فلسطين هي أرضه. إن تركها تصبح أرضاً فارغة من السكان بلا شعب، تنتظر سكانها من أعضاء الشعب اليهودي ليعودوا إليها، فهم العنصر المركزي بالنسبة إليها، وما عدا ذلك فهو شيء عرضي غير أصيل، وإن استوطن هذا الشعب في أرض غير فلسطين فهو شعب بلا أرض. ولتحقيق الاستمرارية ولرأب الصدع لا بد أن يعود الشعب للأرض وتعود الأرض للشعب فيعم السلام ويسود الوئام.

والإشارة الواردة في وعد بالفور للعرب (الذين كانوا يشكلون عام ١٩١٧ ما يزيد على ٩٠٪) من سكان فلسطين باعتبارهم «الجماعات غير اليهودية» هو اصطلاح يفترض أن الأغلبية العربية هامشية بالنسبة لفلسطين وأن ثمة مركزية لليهود في تاريخ فلسطين، بل ويظهر التحيز في مصطلح بريء مثل «الرواد الصهاينة» للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة قبل عام ١٩٤٨، وكلمة «رائد» تتسم بفخامة غير عادية وإيجاءات كثيرة. فالرائد دائماً في المقدمة، يرتاد المجهول ويتجشم المصاعب ليكتشف مناطق جديدة، وليفتح أراضي غير مأهولة بالسكان أو تقطنها شعوب بدائية لم تحسن استغلال هذه الأرض أو تطويرها. وفلسطين الأهلة بسكانها كانت دائماً فارغة من سكانها من منظور غربي، ولذا حينما أتى الصهاينة كانوا من هذا المنظور رواداً.

وغني عن القول أن هذه المصطلحات («الشعب اليهودي» و«التاريخ اليهودي» و«الشتات» و«النفى» و«العودة» و«الرواد») كلها تتنافى تماماً مع الواقع التاريخي للجماعات اليهودية وفلسطين، وأنها تشكل حجر الأساس في العقيدة الصهيونية، وأنها وقعنا ضحاياها. ومع هذا تمت ترجمة هذه المصطلحات وأصبحت هي المصطلحات المتداولة في معظم الأدبيات العربية عن الموضوع، وتغلقت تماماً في نماذجنا التحليلية.

٧ - ويمكننا أن نتناول شكلاً من أشكال التحيز الذي يمكن أن يعد نتيجة غير مباشرة لعملية نقل المصطلح عن طريق الترجمة، وهو ما نسميه ظاهرة «المصطلح الغائب». ونحن حينما نتحدث عن هذه الظاهرة

فسننتقل من علاقة الدال بالمدلول إلى غياب الدال تمامًا رغم وجود المدلول. فهناك جوانب في الواقع لم يرصدها أحد من علماء الاجتماع والتاريخ الغربيين وبالتالي لم يسمها، وهو لم يرصدها ولم يسمها لأسباب عملية واضحة (خشية الفضيحة)، أو بسبب قصوره المعرفي الناجم عن وضعه التاريخي أو مصالحه الاقتصادية أو مجرد قصوره الإنساني، ومن ثم فالذي يحدث أن هذا الدال الغائب يظل غائبًا عنا، وخاصة أننا حينما نستورد وترجم لا نترجم مصطلحًا هنا وكلمة هناك، وإنما نترجم هيكلًا متماسكًا من المصطلحات، مما يعني أن عملية الرصد للواقع تستمر في إطار الدوال الموجودة القائم، أما جوانب الواقع التي تندرج تحت إطار الغائب فلا يرصدها أحد، وإن رصدت فهي تهمش على الفور، إذ أنها تظل واقعة عرضية لا ظاهرة متكررة.

ومن المصطلحات التي ترجمناها بأمانة شديدة وأدخلناها في معجمنا التحليلي اصطلاح «رجل أوروبا المريض»، والإشارة هنا إلى صورة رجل يحتضر يعالج سكرات الموت وهو الدولة العثمانية. والصورة التي يجسدها المصطلح تجعلنا ننظر بكثير من الاشمئزاز على أسوأ تقدير، وبكثير من الشفقة (دون أي احترام) على أحسنه، وننسى تمامًا أن الدولة العثمانية كانت تحمي شعوبها - رغم ضعفها واستبدادها - من الهجمة الاستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره، وننسى أن رجل أوروبا لم يكن من أوروبا، وإنما كان يقف على رأس الشرق الإسلامي زعيمًا وقائدًا له. ومن الواضح أن صورة رجل أوروبا المريض تعكس منظورًا غربيًا للقضية، ينظر للدولة العثمانية باعتبارها ميراثًا سيقسم ويوزع بين القوى الغربية، وهي رؤية لا علاقة لها من قريب أو بعيد برؤية شعوب هذه المنطقة. فالمصطلح - مثل المصطلحات التي ذكرناها من قبل - صك في الغرب ويحمل منظورًا غربيًا.

ولكن ما يهمنا - في السياق الحالي - أن نبين أنه يشير إلى رجل يوجد على حدود أوروبا، ولكنه ليس منها وبالتالي يحدد لها مجال الرؤية التاريخية المسموح لعيوننا بالتحرك فيه، ومن ثم ينسبنا رجلاً آخر أكثر أهمية ومحورية وهو «رجل أوروبا النهمة المفترس» أي الإمبريالية الغربية

التي كانت تبيد سكان أفريقيا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعدادًا هائلة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان استراليا ونيوزيلندا، والتي كانت تقوم في الوقت ذاته باستعباد سكان آسيا وتخوض حربًا ضارية لتسويق الأفيون في الصين لنشر التقدم الغربي والغيبوبة العالمية الدائمة بين ربوعه. هذا الرجل النهم كان رابضًا على حدود العالم الإسلامي بعد أن التف حوله عدة قرون خشية «رجل أوروبا العثماني القوي» الذي كان لا يزال بعافيته، وهو كان رابضًا يتلمظ ويمصمص شفثيه على أمل أن يحل الوهن بـ «الرجل العثماني المسلم»، وحينما بدأ المرض يدب فيه كان يقضم منه قضمة هنا وقضمة هناك، وكان يدسّ له السم أحيانًا في طعامه بل وفيما يقدمه له من أدوية وهمية (من مساعدات وخلافه). وقد جمع «رجل أوروبا النهم» كل قواه وقضى على «رجل الشرق الفتى» (مصر محمد علي) الذي كان بوسعه أن يحقن الرجل المريض ببعض المقويات، ولعله كان من الممكن أن يشفى ويعافى نتيجة ذلك. كل هذه الظلال والمعاني والدلالات اختفت تمامًا بسبب عبارة «رجل أوروبا المريض» التي رسمت أمامنا صورة أخفت «الرجل النهم».

والآن كيف يمكننا تجاوز هذا الخلل والتحيز في المصطلح المنقول، المترجم أو المعرب؟

لعل القاعدة الأساسية لعلاج هذا الخلل هو ألا نترجم على الإطلاق، وإنما ننظر للظاهرة ذاتها، سواء في بلادنا أم بلادهم، ندرس المصطلح الغربي في سياقه الأصلي دراسة جيدة، ونعرف مدلولاته حق المعرفة ثم نحاول توليد مصطلحات من داخل المعجم العربي. والمصطلح الذي سنأتي به سوف لا يكون ترجمة حرفية (أي نقلًا دون اجتهاد) للكلمة الأصلية، ولكنه مع هذا وبسبب هذا تسمية للظاهرة من وجهة نظرنا - أي أننا سنولد أو نصك مصطلحًا يصف ما نرى نحن، ويفسره من وجهة نظرنا، متجاوزين بذلك تسميات الآخر وادعاءاته وأوهامه وحدود رؤيته. وهذا لا يعني بالضرورة انغلاقًا على الذات، وإنما يعني انفتاحًا حقيقيًا على الآخر بدلاً من الخضوع له تمامًا، أو رفضه تمامًا.

فالانفتاح الحقيقي هو عملية تفاعل مع الآخر نأخذ منه (ونعطيه) ونبدع من خلال معجمنا، فالإبداع من خلال معجم الآخر أمر مستحيل. وهذا ما فعله بالضبط الفلاحون الفلسطينيون حينما رأوا المستوطنين الصهاينة، فهم لم يمدعوا بكلام هؤلاء «الرواد» عن أنفسهم أو عن أحلامهم فقد كان لهم رؤيتهم ومنظورهم، فهم كانوا يعرفون تمامًا المعرفة أن أرضهم الفلسطينية مأهولة بأهلها، وهم يعرفون حق المعرفة أن لهم خبرة طويلة، تمتد منذ آلاف السنين، في زراعتها وحصادها. كما أنهم كانوا يعرفون أنهم ينتمون إلى الأمة العربية الإسلامية ذات التقاليد الحضارية والدينية المركبة. ولذا فهم لم يسموا الرواد الصهاينة قط بالرواد، بل سموهم بـ «المسكوب» نسبة إلى مسكفا أو مسكبا أي موسكو، وكانت الكلمة تعني عندهم الذين أتوا من روسيا، أي الأجانب أو الدخلاء، وهي تسمية للمستوطنين الصهاينة أكثر دقة وعلمية من المصطلح الصهيوني الذي نتداوله في الوقت الحاضر.

ونحن لو نظرنا للظاهرة الصهيونية بشكل متجرد من المنظور الغربي (مثل الفلاحين الفلسطينيين) لاكتشفنا أن هناك صهيونيتين لا صهيونية واحدة: الأولى خاصة بشرق أوروبا ويطلق عليها «الصهيونية الاستيطانية» - أي أن يذهب اليهودي إلى فلسطين ويستوطن فيها ويطرده سكانها أو يستغلهم. ولكننا سنكتشف صهيونية أخرى في العالم الغربي وهي «الصهيونية التوطينية»، وهي صهيونية «أصدقاء صهيون» (الذين أشار إليهم بن غوريون) الذين لا يهاجرون ويكتفون بالضغط السياسي من أجل الدولة الصهيونية، ويدفع التبرعات لتوطين اليهود الآخرين في فلسطين بعيدًا عنهم. وقد سمى بعض الصهاينة الاستيطانيين هذا النوع من الصهيونية بصهيونية الصالونات. كما قال أحدهم أن الصهيوني هو يهودي يأخذ مالا من يهودي ثان ليرسل بيهودي ثالث بعيدًا عنه في أرض الميعاد!

وقد أشرنا من قبل إلى اصطلاح «يهودي» وكيف أن هناك الكثيرين يدعون أنهم يهود، لأن هذا يرضيهم نفسيًا (كما هو الحال مع يهود أمريكا) أو لتحقيق مغنم مادية (كما هو الحال مع المهاجرين السوفيات).

لو اكتفينا بترجمة كلمة «يهودي» فنحن ننقل معها تحيزات مضللة، ولذا يمكن أن نستخدم اصطلاح «أشباه اليهود» للإشارة لهؤلاء اليهود الذين نسوا يهوديتهم ثم تذكروها فجأة لأسباب غير دينية، و«مدعي اليهودية» الذين يدعون اليهودية لنفس الأسباب، شريطة أن يفهم أن المكون اليهودي في الدال ينصرف إلى الادعاءات والديباجات وليس إلى أي مدلول حقيقي.

وهناك مصطلح متداول في الأدبيات الصهيونية، وهو Negation of the Diaspora وهو عادة ما يترجم بـ «نفي الدياسبورا»، وهي ترجمة أمينة تنقل تحيزات مَنْ صك المصطلح ومحاولته إخفاء شيء ما. ونحن بعد أن شاهدنا تاريخ النشاط الصهيوني عبر المائة عام الماضية اكتشفنا أن هذا الدال يعني أن الحركة الصهيونية ستحاول تصفية يهود العالم عن طريق تهجيرهم إلى فلسطين، أما من يبقى منهم في الخارج فستقوم بحلبيه لصالح الحركة الصهيونية، بحيث يتحول يهود العالم إلى ما يشبه المستعمرات للمستوطن الصهيوني (على حد قول الزعيم الصهيوني أهارون بن جوردون). ولذا فنحن ننقل هذا المصطلح بقولنا «تصفية الجماعات اليهودية أو استغلالها».

أما كلمة «انتي سيمتيزم» «معاداة السامية» فيمكننا أن نقول ببساطة شديدة «معاداة اليهود»، وبالتالي ننحت مصطلحًا دقيقًا يصف الظاهرة دون أن ننقل المقولات العنصرية الغربية. وفي حالة «إيديولوجية»، مثلاً اقترح كلمة «قول» والتي تعني «الكلام» و«كل لفظ» و«الرأي والاعتقاد». ولتوسيع المجال الدلالي للكلمة يمكن أن نضيف صفات مثل «قول باطل» و«قول صادق» و«قول فاصل» وإذا تحول القول إلى إيمان راسخ فهو «عقيدة»، والقول قد يتحول إلى «فعل»، وقد يتحول إلى مجرد «ديباجات» وهكذا، بحيث نغطي كل الدلالات بكل تعرجاتها وتناقضاتها دون أن نقع بالضرورة في التناقض. وعملية التوليد أيضًا ستوقف دخول أي مصطلحات ذات منطوق أعجمي، كما أن كلمة «قول» مرتبطة بكلمات مثل «مقولة» و«أقوال» و«قيل وقال»، و«القوالون» وهكذا. وأرجو ألا يتهمني أحد بأنني لم أنقل بدقة كل المعاني في كلمة «إيديولوجية»،

فالتوليد محاولة تتجاوز عملية النقل لي طرح لا بديلاً وإنما نقطة ابتداء جديدة تماماً يتم توليدها من داخل المعجم العربي من خلال التفاعل مع حضارة الآخر، ثم ننتقل بعد ذلك من داخل ما ولد إلى نسقنا المعرفي الفريد.

أما مصطلح الترشيد Rationalization فيمكن أن نعبر عنه بكلمة «تدجين» باعتبار أن ما يحدث بالفعل ليس ترشيحاً وحسب، وإنما تنميط واستيعاب للإنسان في الحركة المادية البيروقراطية للمجتمع وفي الحتميات المادية المختلفة بحيث يفقد الإنسان فرديته وإنسانيته ومقدرته على الاختيار.

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى ضرورة اكتشاف المعجم العربي بكل إمكاناته اللفظية والصرفية والدلالية. فمثلاً يمكن بعث كلمات قديمة ضَمَرَتْ مثل «العمران» و«التراحم» للحديث عن الاجتماع الإنساني. ويمكن اكتشاف كلمات مثل «ديباجة» وهي كلمة قديمة لها ما يناظرها في المعاجم الغربية تصف مجموعة من المدلولات الهامة المركبة، أو كلمة «فن» (التي هي أكثر شمولاً من كلمة Art آرت الانكليزية والتي تعني ما يلي:

١ - التطبيق العملي للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققها ويكتسب بالدراسة والمران.

٢ - جملة القواعد الخاصة بحرفة أو صناعة أو عمل.

٣ - مهارة يحكمها الذوق والمواهب.

٤ - جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال.

٥ - النوع من الشيء.

ولعلنا لو استخدمنا كلمة «فن» بدلاً من عبارة «العلوم غير الدقيقة» وقلنا «فن النفس» بدلاً من «علم النفس» (بكل ما تحمل كلمة «علم» من

ادعاء لا أساس له في الواقع) تمامًا كما يقول «فن المكتبات» بينما يقولون هم Library Science أو لعلنا لو قلنا «علوم فنية» (أي علوم تعتمد على الذوق والمواهب والمران والمشاعر وليس مجرد الرصد والملاحظة)، لاحظنا بكثير من جوانب الظاهرة الإنسانية التي تفلت من قبضة من يستخدم لفظة «علوم» وخاصة أن التفنن هو التنوع (تفنن الشيء تنوعت فنونه).

ومن المهم للغاية محاولة تأسيس علوم إنسانية (وهيكل مصطلحي) تكون نقطة ابتدائها لا الاسم وإنما الفعل أو المصدر أو اسم المعنى الذي يمكن اشتقاق فعل منه (اجتماع - قيام) على عكس الاسم الجامد (الذي ينقسم إلى اسم الذات والجنس) وهو ما لا يؤخذ من لفظه فعل بمعناه (رجل - غصن - نهر). فالفعل يتميز بكل من السكون والحركة، كما أن إمكاناته التعبيرية والاشتقاقية عالية للغاية. وحينما أدرس مادة الأدب النقدي فإنني استخدم كلمة «استنطق» لأصف علاقتي كناقد بالنص، وقد وجدت أن هذا الرجل يحل مشكلة كبرى وهي مشكلة التفسير: هل المعنى الذي يأتي به الناقد هو نتاج رؤيته الذاتية وحسب، يفرضه فرضًا على النص، أم أن المعنى كامن في النص ذاته؟ وهذا تعبير عن إشكالية الذات والموضوع. وباستخدام صيغة «استنطق» الناقد النص يصبح المعنى لا في عقل الناقد ولا في النص ذاته، وإنما إنتاج حركة تفاعل بينهما، ولذا يوجد المعنى في نقطة افتراضية تقع بينهما ويلتقيان فيها، فالناقد يقول ما يقول من خلال النص وحده، إذ لا يمكنه القول دون النص ولذا فهو يستنطقه، والنص لا يبوح ببعض سره إلا من خلال الناقد، فهو لا ينطق بمفرده وإنما يستنطق، فالواحد في حاجة للآخر.

بل ويمكن نحت كلمات جديدة تمامًا، وهذا ما حاولت أن أنجزه في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية عندما نَحَتُّ كلمة «الحدودية» لوصف وضع الجماعات اليهودية التي تقف على هامش الحضارة الغربية. كما نحت كلمة «الحوسلة» أي تحويل كل شيء (الإنسان والطبيعة) إلى وسيلة لوصف اتجاه أساسي في الحضارة العلمانية نحو تحويل كل العالم إلى مجرد مادة يمكن توظيفها والاستفادة منها، لا حرمة لها ولا قداسة. وقد تم صك مصطلح «الحوسلة» على غرار مصطلحات مثل «البسملة»

و«الحوقلة» وعلى غرار مصطلح مثل «برمائي».

ومن أهم آليات التغلب على التحيز محاولة الوصول إلى مصطلح أكثر عمومية من المصطلح الغربي بحيث يصبح المصطلح الغربي هو عبارة عن مثال نسبي خاص أو مجرد حالة لظاهرة إنسانية عامة. فمثلاً بدلاً من الحديث عن «الديمقراطية» يمكن التحدث عن «آليات مشاركة الجماهير في صنع القرار»، وما الديمقراطية سوى أحد أشكال المشاركة، تمامًا مثل «الشورى» أو اجتماعات مجالس شيوخ القبائل» وهكذا. وبذا يفقد المصطلح الغربي مركزته المعرفية الوهمية، ويصبح مجرد إحدى الشفرات التي يمكن فكها عن طريق مصطلح أكثر عمومية، ويصبح مجرد جملة أو تركيبة لفظية داخل لغة إنسانية عامة. وهذه اللغة الإنسانية العامة - بالمناسبة - لم يتم اكتشاف قواعدها بعد. فالموسوعة (العالمية) للعلوم الاجتماعية ليست عالمية وإنما غربية، وعلى الرغم من أن بعض كاتبها من العالم الثالث، فإن نماذجها التحليلية ومصطلحاتها إما غربية أو متمركزة حول الغرب.

ومن أهم الآليات الأخرى لتجاوز التحيز هو إدراك البعد المجازي في المصطلحات، فرجل أوروبا المريض ليس وصفًا دقيقًا لحالة تاريخية وإنما استعارة (الدولة العثمانية تشبه الرجل المريض، الدولة العثمانية على طرف أوروبا). ولا بأس من استخدام الاستعارات في صك المصطلح، فاللغة الإنسانية في جوهرها مجازية (عين الماء - يد الكرسي - رجل المائدة - خر صريع الهوى... الخ) والمجاز تحيز يتم بمقتضاه ترتيب تفاصيل الواقع لنقل رؤية معينة. ولذا فإدراك مجازية المصطلح سيجعل بوسعنا معرفة حدوده. وقد كتبتُ دراسة عن مصطلحي الحمام والصقور وبيّنت أنهما في واقع الأمر طيران يستخدمان لوصف حالتين إنسانيتين (السلام والعنف). واقترحت أنه لرصد الموقف الإسرائيلي من الانتفاضة قد يكون من الأفضل إدخال طيور إدراكية أخرى مثل: الدجاج (الذي يفر هاربًا) والنعام (الذي يدفن رأسه في الرمل) وتنوعات أخرى على هذه الطيور الإدراكية مثل الدجاج الذي يتظاهر بأنه من الصقور، والحمام التي هي في واقع الأمر نعام، وهكذا. كما أنني في دراستي لليهودية اقترحت

تشبيه اليهودية لا بالنبات (الاستعارة العضوية) ولا بالآلة (الاستعارة الآلية)، وإنما بالتشكيل الجيولوجي المكون من طبقات متجاورة غير متفاعلة، واقتاحت أن الاستعارة التي أطرحتها لها مقدرة تفسيرية عالية.

ولكن مع هذا توجد مصطلحات خاصة، عقائدية ومذهبية، مرتبطة بعقيدة ومذهب ما، ولا بد من نقلها لعرض وجهة نظر الآخر. فحينما يتحدث الصهاينة عن «عودة الدياسبورا» من «المنفى» إلى «أرض الميعاد» و«أرض الأجداد» ويستخدمون مثل هذه المصطلحات، فنحن لا بد أن نقلها للقارئ العربي كما هي إن كانت هي موضع النقاش. وقد أشرت من قبل إلى قضية «المنظور» وهي أن بعض الدوال لا تشير إلى مدلول خارجي وحسب، وإنما تشير بالدرجة الأولى إلى وجهة نظر صاحبها (منظوره) لهذا الشيء الخارجي، وأن وجهة النظر هذه في واقع الأمر أكثر أهمية من المدلول الخارجي. ويمكن في هذه الحالة نقل أو ترجمة المصطلح، على أن نوجه نظر القارئ إلى أن المصطلح يحوي مكوناً عقائدياً بأن نضع المصطلح بين شولتين كأن نقول «الدياسبورا» أو «الشتات» وأن نضيف عبارة «من منظور صهيوني»، أو أن نحيد فنقول «الدياسبورا» أي «الجماعات اليهودية في أرجاء العالم ما عدا فلسطين» أو أن نقول «الحرب العالمية (أي الغربية) الأولى» و«عصر النهضة الغربية» و«العصور الوسطى في الغرب» و«المستوطنون الصهاينة الذين يسمون أنفسهم بـ «الرواد» أو «الرواد أي المستوطنون الصهاينة».

ويمكننا أن نستخدم عمليتي التوليد والترجمة سوياً، فيمكن أن نشير إلى «الرومانتيكية» باعتبارها حركة فكرية أدبية وفنية سادت في أوروبا في القرن التاسع عشر ولها مواصفات محددة وامتداد تاريخي داخل الحضارة الغربية، وبنفس الطريقة يمكن أن نستخدم كلمة «كلاسيكية» و«باروك». أما إذا أردنا أن نشير إلى ظواهر مماثلة أو شبيهة داخل التشكيل الحضاري العربي فإن علينا أن ننحت مصطلحات خاصة تصف الظواهر العربية الأدبية والفكرية بكل خصوصياتها، وتحاول أن تغطي الحقل الدلالي بكل نتوئه وتعرجاته، وهو أمر مستحيل إذا ما استخدم المصطلح الغربي. ولعل كلمة مثل «الوجدانية» قد لا تفي بالغرض ولكنها

على الأقل لا تذيب موجات وذبذبات لا علاقة لها بالسياق الحضاري العربي.

ثم نعود مرة أخرى إلى تفاحتي الحمراوين: واحدة أرضية زمنية عند طرف إصبعي والأخرى فردوسية أخروية مغروسة في أحلامي، بحثت عنهما في القاهرة وفي العواصم المستباحة، طرقت كل الأبواب دخلت في (البيتزاهت) و(ويمبي) وكل (الشوبنغ سنترز)، فاكشفت أنهما اختفيتا «هاتان تفاحتان حمراوان» اختفيتا تمامًا مثل صيغة المثني في العاميات العربية ومثل الخطوط العربية التي كانت تزين الحوائط في الماضي. أخبروني أن هناك أشياء دائرية حمراء مصنوعة من البلاستيك المستورد، ولكنني رفضت وسرت في الطرقات أبحث عنهما، عن تفاحتي الحمراوين: واحدة زمنية، والأخرى فردوسية أخروية، كليهما في أحلامي هذه المرة.